المصير الانساني

الخلود والبعث

خلود النفس

جون هيك

تعريب: طارق عسيلي

المعجمية

يسعى جون هيك في هذه المقالة التي هي فصل من كتابه حول فلسفة الدين أن يعالج قضية الخلود والحياة بعد الموت ليثير بعض الأسئلة محاولاً تقديم الاجابة. ولكن فلسفة الدين على ما يرى عدد من المشتغلين فيها أقدر على طرح الأسئلة من تجشم العناء في سبيل القبض على الجواب. ويبقى السؤال نصف العلم.

تدلّ طريقة دفن الهياكل البشرية التي تمّ اكتشافها حتى الآن على أن التمييز بين الجسم المادي والنفس غير المادية أو نصف المادية قديمٌ قدمَ الحضارة الإنسانية. هذا وقد قدّم علماء الأنثروبولوجيا عدداً من النظريات حول منشأ التمييز بين الروح والجسد منها: أن ما أوحى بهذا التمييز هو تذكُّر الموتى وشاهدتهم في الأحلام أو رؤية المرء صورته منعكسة في الماء، أو على أسطح الأجسام اللامعة الأخرى، أو بالتأمل في أهمية الطقوس الدينية التي نمت عفوياً أمام واقع الموت.

ويعدّ أفلاطون (٤٢٨- ٣٤٨/٧ق.م.) الفيلسوف الأكثر تأثيراً في الفلسفة الغربية، أحد الذين طوّروا نظرية ثنائية الجسد والنفس؛ حيث صاغها في منظومة خاصة. كما أنه أول من حاول البرهان على خلود النفس،[1] فهو يرى أن الجسد ينتمي إلى العالم الحسي[2] ويشاركه في التغير والطبيعة الزائلة. أما العقل فيتعلّق بالحقائق الثابتة التي ندركها عندما نفكر، لا في ما هو خيّر، بل في الخير نفسه، وليس في ما هو عادل من أعمال محددة، بل في العدالة نفسها، وغيرها من «الكليّات» أو المثل الخالدة التي تشترك فيها الموجودات والحوادث المادية ذات الصفات المحددة؛ ولأن صلة النفس بهذا العالم العلوي غير المتغيِّر أوثق من صلتها بعالم الحواس الزائل، فهي إذاً خالدة. لهذا السبب، إذا كرّس المرء نفسه لتأمُّل الحقائق الخالدة، بدل إرضاء رغبات الجسد الجامحة، فسوف يرى عند الموت حين يتحول الجسد إلى غبار، أن النفس تنجذب إلى عالم الثبات لتعيش هناك إلى الأبد.

ولقد رسم أفلاطون صورة رائعة للبحث عن الجمال، حرَّكت وأنعشت أذهان البشر من ذكور وإناث على مدى قرون من الزمن وفي بلدان مختلفة. مع ذلك لا يمكن في العصر الراهن (كما كان الأمر خلال القرون الأولى للمسيحية)، للفلسفة الشائعة في الغرب؛ ولبرهان أفلاطون على خلود النفس - الذي يفترض مسبقاً النظام الفلسفي الأفلاطوني - أن يدّعي أنه يشكّل برهاناً لإنسان يعيش في القرن العشرين.

وقد لجأ أفلاطون إلى حجة أخرى مفادها: أن الأشياء المعرّضة للفساد هي الأشياء المركّبة، وأن فساد أمر ما يعني انحلاله إلى أجزائه المكونة له. فكل الأجسام المادية مركبة، أما النفس فبسيطة، وبالتالي فإنَّ كل ما هو بسيط

لا يقبل الفناء.

ومن بعده تبنّى توما الأكويني هذه الحجة التي أصبحت معياراً في لاهوت الروم الكاثوليك كما يتضح من خلال الفقرة التالية المقتبسة عن الفيلسوف الكاثوليكي جاك ماريتان:

«النفس المجرّدة لا تفسد؛ لأنها ليست مادية، وهي لا تتحلّل لعدم تكونها من أجزاء، ولا يمكن أن تفقد وحدتها الشخصية، فهي قائمة بذاتها، كما لا يمكن أن تفقد طاقتها الداخلية؛ لأنها تحتوي بين جنبيها كل مصادر طاقتها. والنفس الإنسانية لا يمكن أن تموت، وهي إذا وجدت، لا يمكن أن تزول، وسوف تبقى بالضرورة إلى الأبد وتستمر إلى ما لا نهاية. هكذا فكّر العقل الفلسفي عند كبار الميتافيزيقيين مثل توما الأكويني الذي استطاع البرهان على خلود النفس الإنسانية.[٣]

تعرّض هذا الشكل الاستدلالي للنقد على أسس عدة. فقد أشار كانط أنه رغم صحة القول: إنَّ الجوهر البسيط لا يفنى، إلا أن الوعي قد ينعدم من خلال تقليل كثافته إلى الصفر.[٤] كذلك فإن علم النفس الحديث شكّك بالمقدمة الأساسية التي تقول: إن العقل موجود بسيط؛ إذ إنه يبدو كبنية لها وحدة نسبية فقط تكون عادة مستقرة إلى حد ما ومندمجة تماماً لكنها قابلة تحت درجات مختلفة من التوتر للانقسام والانحلال.

يوضح هذا التفسير السيكولوجي، أن فرضية كون النفس جوهراً بسيطاً ليست مبنية على أساس تجريبي، بل هي فرضية ميتافيزيقية. وهي بهذا لا تستطيع أن تقدّم لنا أساساً لدليل عام على خلود النفس.

وقد صيغ التمييز بين الجسد والروح، أول الأمر، على شكل تعليم فلسفي في اليونان القديمة، ثم عُمِّد ليكون مسيحياً، واستمر خلال القرون الوسطى ليدخل إلى العالم الحديث بصفة الحقيقة البديهية الشائعة عندما أعاد ديكارت تعريفه في القرن السابع عشر، لكن منذ الحرب العالمية الثانية، وبعد أن كانت ثنائية العقل - المادة الديكارتية من المسلّمات لقرون عدة، أصبحت عرضة للنقد الحاد؛[٥] حيث دار جدال حول الكلمات التي تصف الخصائص والعمليات الذهنية مثل: «ذكاء» «مفكر» «سعادة» «خال من الهم» «يحسب» وما شابهها،

وحول انطباقها خلال الممارسة على نماذج من السلوك والأمزجة البشرية، وأنها تشير إلى الفرد التجريبي؛ أي الكائن البشري المرئي الذي يولد وينمو ويتصرّف ويشعر ويموت، وليس إلى الأعمال الخيالية التي يؤديها «الشبح في الآلة». وبالتالي فإن الفرد بهذه المواصفات يكون على شاكلة ما يصدر عنه؛ أي مخلوق من لحم ودم يتصرّف ويقدر على التصرّف بطرق مميَّزة، لا نفساً لا- مادية تتفاعل بغموض مع الجسد المادي.

نتيجة لهذا التطوّر، أصبح جُلّ فلاسفة منتصف القرن العشرين لا يرى الكائن البشري كما هو في الكتابات الإنجيلية، نفساً أبدية متصلة زمنياً بجسد فانٍ، بل كشكل من أشكال الحياة السيكوفيزيائية، المتناهية القابلة للفناء. كما قال المتخصّص في العهد القديم J. Pedersen عن العبرانيين، إن الجسد بالنسبة لهم «هو النفس في شكلها الخارجي»[٦] ، غير أن هذه الطريقة في التفكير أدّت إلى فهم للموت يختلف تماماً عن الفهم الموجود عند أفلاطون وفي التيّار الأفلاطوني الجديد في الفكر الأوروبي.

إعادة خلق الشخص ذي السمات النفسية والبدنية

لم تحظ فكرة الحياة بعد الموت بأهمية حقيقية في اليهودية، إلا في المرحلة المتأخرة من العهد القديم؛ إذ كان التركيز الكامل للفكر اليهودي، سابقاً، ينصبّ على عهد الله مع الأمّة بوصفها كائناً حياً استمر على مدى قرون، عاش ومات خلاله أجيال متعاقبة، كما أن التفكير بالمقصد الإلهي تجاه الأفراد الذي يتعالى عن هذه الدنيا، لم يتطور إلا عند انهيار الأمّة ككيان سياسي، وهذا ما دفع نحو الفردانية والسؤال عن المصير الشخصي.

فعندما نشأ الاعتقاد الإيجابي بالمقصد الإلهي في حفظ البشر بعد الموت، اتخذ هذا الاعتقاد الشكل اللا أفلاطوني للاعتقاد ببعث الأجساد. فالفارق الديني بين الاعتقاد الأفلاطوني بخلود النفس والاعتقاد اليهو- مسيحي هو أن الأخير يسلّم بإعادة خلق خاصة يقوم بها الله، وهذا يولّد شعوراً بالتعلق التام بالله في ساعة الموت، شعوراً يتناسب مع ما ينصّ عليه الكتاب المقدس من كون الإنسان خلق من «تراب الأرض»[٧] إنه (كما نقول اليوم) نتاج تطور الحياة البطيء من بداياتها البطيئة في الطين البدائي. إذاً، الموت في التصوّر اليهودي-

المسيحي أمر حقيقي ومرعب. ولا أحد يعتقد أنه كالانتقال من غرفة إلى أخرى أو كخلع رداء وارتداء آخر مكانه. إنه يعني الانقراض التام والانتقال من دائرة الحياة المنيرة إلى «ليل الموت الذي لا ينتهي» ولا يمكن أن يكون ثمَّة وجود جديد إلا من خلال الحب الإلهي المهيمن الخلاق.

ماذا يعني «بعث الموتى»؟ تقدِّم لنا مناقشة القديس بولس جواباً أساسياً عن هذا السؤال.[٨] حيث إن تصوره عن القيامة العامة (التي تختلف عن القيامة الفريدة ليسوع المسيح) لا صلة له بقيامة الأجساد من المقابر، بل يتصل بإعادة الخلق الإلهية أو إعادة تشكيل الفرد الإنساني بخصائصه الروحية والجسدية، ليس الكائن الحي الذي مات بل كـ soms pneumstic «جسد روحي» يسكن عالماً روحياً كما يسكن الجسم الطبيعي في العالم المادي.

إن أكبر مشكلة تواجه معتقداً كهذا هي توفير معيار للهوية الشخصية يربط الحياة الأرضية بحياة المبعث؛ إذ إن بولس لا يأخذ هذه المسألة بالحسبان، لكن ربما يمكن للمرء أن يُطَوِّر أفكاره على الطريقة التالية[٩]:

فلنفترض أولاً، أن أحداً ما -جون سميث- الذي يعيش في الولايات المتحدة الأميركية، قد اختفى فجأة وبصورة لا يمكن تفسيرها أمام أنظار أصدقائه، وفي نفس اللحظة ظهر في الهند وبصورة لا يمكن تفسيرها نسخة مطابقة له. وهذا الذي ظهر في الهند يشبه شبهاً تاماً من حيث الصفات الجسدية والنفسية الشخص الذي اختفى في أميركا، وأن هناك استمراراً شبه كامل للذاكرة بينهما، كما أن له صفاته الجسدية بما فيها بصمات أصابعه ولون عينيه وشعره ومعتقداته وعاداته ومشاعره ومزاجه. وأكثر من ذلك، فإن «جون سميث» الشبيه يعتقد أنه نفس جون سميث الذي اختفى في الولايات المتحدة. ثم بعد كل الفحوصات الممكنة التي أُجريت وأثبتت أنها إيجابية، فإن العوامل التي ستؤدي بأصدقائه لقبول أن «جون سميث» هو جون سميث سوف تسود - وقد تتسبّب بإغفال حتى اختفائه المحيّر وانتقاله من قارة إلى قارة-، أكثر من التعامل مع «جون سميث» الحامل لكل ذكريات وصفات جون سميث كشخص آخر غير جون سميث.

ولنفترض ثانياً، أن جون سميث هذا، بدل أن يختفي بطريقة غامضة، يموت، لكن في لحظة موته يظهر «جون سميث» الشبيه به والحامل لكل ذكرياته

وصفاته الأخرى في الهند. حتى لو كانت الجثة بين أيدينا فإننا سنضطر لقبول أن «جون سميث» هذا، هو نفسه جون سميث الذي مات. وقد نضطر للقول إنه خلق بطريقة إعجازية في مكان آخر.

والآن لنفترض ثالثاً، أنه وفي لحظة موت جون سميث ظهر «جون سميث» النسخة، ليس في الهند، بل كنسخة بعثت في عالم مختلف تمام الاختلاف، عالم بعثٍ مسكون بأناس مبعوثين فقط، لهذا العالم فضاؤه المختلف عن العالم الذي نعرفه؛ أي أن الشيء في عالم المعاد ليس واقعاً على أي مسافة أو أي اتجاه من الأشياء الموجودة في عالمنا الذي نعيش فيه، رغم كون كل شيء في أي من العالمين متصل مكانياً بكل الأشياء الأخرى في نفس العالم.

تزودنا هذه الفرضية بنموذج يمكن لنا أن نبدأ منه لفهم إعادة الخلق الإلهية للشخصية البشرية المتجسدة. فقد تمَّ في هذا النموذج التقليل من عنصر الغموض والغرابة إلى أقل درجة من خلال اتباع رأي بعض آباء الكنيسة الأوائل، القائل: إن لجسم البعث شكل الجسم المادي نفسه.[١٠] كما تمّ تجاهل ما لمّح إليه القديس بولس أنه قد يكون (جسم البعث) مختلفاً عن الجسم المادي كما تختلف حبة القمح الخضراء عن بذرة القمح.[١١]

ما هو مرتكز هذا الاعتقاد اليهومسيحي بإعادة الخلق الإلهية أو إعادة إنشاء الشخصية الإنسانية بعد الموت؟ هناك بالطبع مناقشة أساسية يتم فيها تعليم عقيدة الحياة بعد الموت في كل مكان من العهد الجديد (رغم ندرته في العهد القديم). مع أن الركيزة الأهم تتمثل بأن الاعتقاد بالقيامة ينشأ كنتيجة طبيعية للإيمان بأهداف الله المطلقة، وغير المحدودة في الموت. وفي إطار مشابه، هناك نقاش حول وجود خطة إلهية لخلق أشخاص يكونون بصحبة الله، واعتبار أن سماح الله للناس أن يصيروا إلى العدم قبل إنجاز الهدف الإلهي يتناقض مع المقصد والمحبة الإلهية للمخلوقات البشرية.

إن هذا التحقّق الموعود لهدف الله من أجل الفرد، هو الذي ستدرك به كامل إمكانات الطبيعة الإنسانية، التي تؤلّف «الجنة» المرموز إليها في العهد الجديد بالمائدة السعيدة التي يفرح فيها الكل معاً. وقد رأينا في معالجة مسألة الشرّ في محل آخر، أن السؤال المطروح عن إمكان نجاح أي ثيوديسا(نظرية في العدل الإلهي) من دون أن ترسم لنفسها هذا الإيمان الأخروي في سعادة أبدية غير

محدودة لا تقاس بها كل الآلام والأحزان التي تم تحمّلها في طريق الوصول.

الفكرة التي تقابل فكرة الجنة في المسيحية هي فكرة الجحيم، وهذه أيضاً تتناسب مع فكرة العدل الإلهي، تماماً مثلما أن التوفيق بين الخير والقدرة الإلهية وبين وجود الشر يقضي أن مخاض التاريخ سوف يأتي في النهاية بخير أبدي للبشرية ويحول دون وقوع أي شر.

قد يكون النوع الوحيد من الشر الذي يتعارض مع القدرة المطلقة والمحبة الإلهية هو الألم الذي لا يمكن افتداؤه أبداً أو استخدامه في تحقيق هدف الخير الإلهي، فالعذاب الذي لا ينتهي قد يشكّل بالضبط ألماً كهذا، ولأنه أبدي لا يمكنه أبداً أن يؤدي إلى نهاية خيّرة تتجاوزه. وهكذا، فإن فكرة جهنّم كما يفهمها المتحمسون لها مثل أوغسطين أو كالفِن تشكّل جزءًا كبيراً من مشكلة الشر! فلو أُوِّلت جهنم بالعذاب، يكون الدافع اللاهوتي وراء الفكرة على خلاف مباشر مع حافز البحث عن العدل الإلهي. غير أن الغموض والالتباس يكتنف كون عقيدة العقاب الأبدي ترتكز بشكل سليم على العهد الجديد. ومن جهة أخرى، إذا كانت كلمة «جحيم» تعني استمرار الألم المطهِّر الذي يُختَبَر غالباً في الحياة الدنيا، والذي يوصل أخيراً إلى السعادة القصوى في السماء، فلا خلاف مع مستلزمات العدل الإلهي. ثم إن فكرة الجحيم قد تخرج من حرفيتها وتقاس قيمتها كرمز للمسؤولية الخطيرة الناتجة عن حريتنا كبشر بالنسبة لخالقنا.

هل تساعد الباراسيكولوجيا؟

تدّعي حركة الروحيين أن البرهنة على الحياة بعد الموت قد تمّت من خلال حالات اتصال بين الأحياء و «الأموات». فخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وعقود القرن العشرين، تحوّل هذا الادعاء إلى موضوع دراسة متواصلة وحذرة من قبل عدد من الأشخاص المسؤولين والمختصين.[١٢] إن هذا العمل الذي يعود تاريخه التقريبي إلى زمن تأسيس جمعية البحوث النفسية في لندن عام ١٨٨٢ يُعرف حالياً بالاسم الذي تبنّته الجمعية، أو بالاسم الأكثر شيوعاً اليوم، الباراسيكولوجيا.

إذا قاربنا الموضوع من وجهة النظر التي تهمّنا في هذه المقالة، فقد نقسّم الظاهرة الباراسيكولوجيين، مبدئياً، إلى مجموعتين:

١- من لا يستخدمون أي إشارة إلى فكرة الحياة بعد الموت وعلى رأس هؤلاء أصحاب اتجاه سيطرة العقل على المادة (PK) psychokinesis، واتجاه التخاطر فوق الحسي بأشكاله المختلفة (ESP) (مثل التخاطر والاستبصار)؛

٢- هناك أيضاً تلك الظواهر التي تثير سؤال الحياة بعد الموت، مثل المكاشفات وغيرها من ظهورات حسيّة للأموات، و «الرسائل الروحية» التي تصل عبر وسائط.

بيد أن لهذا القسم فائدة تمهيدية فقط؛ لأن اتجاه التخاطر فوق الحسي برز كمفتاح لفهم كثير مما يحصل في المجموعة الثانية. سوف نبدأ بإيجاز الأسباب التي أغرت غالبية العاملين في هذا الحقل بالرغبة في التسليم بأمر غريب مثل التخاطر.

التخاطر telepathy اسم لحقيقة غامضة، حيث يسبّب أحياناً التفكير الحاصل في ذهن شخص ما، تفكيراً شبيهاً أو مرتبطاً به يحصل لشخص آخر لا يكون بينهما أي وسائل اتصال عادية، وفي هذه الظروف يستبعد أن يكون الأمر مجرّد صدفة.

مثلاً، قد يرسم شخص سلسلة من الصور أو الرسوم البيانية على الورق، وبطريقة ما يبثّ انطباعاً عنها إلى شخص آخر في غرفة أخرى يرسم صوراً ورسومات يمكن التعرّف عليها بأنها نفس ما رسمه الشخص الآخر. يمكن أن يكون هذا الأمر صدفة في حال حصوله مرة واحدة بنجاح ؛ لكن هل يمكن أن تتكرّر الصدفة في جميع المحاولات؟

ابتكر الخبراء طرقاً لقياس احتمال الصدفة في حالات التخاطر المفترضة. في أبسطها، تم استخدام بطاقات طبع عليها خمسة رموز مختلفة. في علبة تحوي خمسين بطاقة، تحمل كل عشرة منها أحد الرموز الخمسة، تخلط البطاقات جيّداً، ثم يركّز المرسِل على البطاقات واحدة واحدة، يحاول المرسَل إليه (الذي بالطبع لا يستطيع أن يرى لا المرسِل ولا البطاقات) أن يكتب التنظيم الصحيح للرموز، وتكرّر العملية، مع إعادة خلط البطاقات مئات أو ألوف المرّات. وبما أن هناك خمسة رموز مختلفة فقط، فإن نسبة التخمين العشوائي قد تحصل مرة صحيحة في كل خمس مرات. وبالتالي، على فرض أن «الصدفة» فقط هي

التي تعمل، ينبغي أن يكون المتلقّي مصيباً في حوالي ٢٠ في المائة من محاولاته، ومخطئاً في حوالي ٨٠ في المائة؛ وكلما كانت السلسلة أطول كلما كان التخمين أقرب إلى هذه النسبة. لكن في مواضيع التخاطر الجيدة تكون نسبة الإصابة أكثر مما يحصل في حال كان الأمر مجرّد صدفة. كما أن احتمال الصدفة يتراجع والاحتمال الآخر يتزايد كلما تم الحفاظ على نسبة الإصابة في سلاسل أطول من المحاولات. بهذه الطريقة، تم تسجيل ترجيح عامل التخاطر بنسبة أكثر من مليون إلى واحد. هذا وقد سجَّل ج. ب. راين J.B.Rhine (جامعة ديوك) نتائج تبيّن قيماً «مقابل الصدفة» تتراوح بين سبعة واثنين وثمانين (وهذا ما يساوي الترجيح على الصدفة بـ ١٠٠٠٠٠ إلى واحد) (وهذا ما يحوّل الترجيح على الصدفة إلى مليارات).[١٣]

لقد تمّ نقد هذه الأبحاث، وأثير حولها جدال معقّد؛ من جهة أخرى، يصعب إنكار أن بعض الأبحاث الشبيهة وصلت إلى نتائج مشابهة[١٤]، وفي ضوء هذه التقارير يصعب إنكار أن بعض العوامل الإيجابية وليس «الصدفة» وحدها هي التي تؤثّر. فـ «التخاطر» هو ببساطة اسم لهذا العامل الإيجابي المجهول.

كيف يعمل التخاطر؟ إلى الآن لا يمكننا تبرير وجود التخاطر إلا بالسلب. يمكن القول مثلاً، وبيقين منطقي أن التخاطر لا يتكوّن من أي نوع من الإشعاعات المادية الشبيهة بموجات الراديو. للأسباب التالية: أولاً، التخاطر لا يُعاق أو يضعف تناسباً مع المسافة، كما هي الحال في كل أشكال الإشعاعات المعروفة؛ ثانياً، لا يوجد عضو في الدماغ أو في أي مكان آخر يمكن أن يعدّ مركز إرسال أو استقبال. بالتالي يمكن القول: إن التخاطر أمر ذهني بالكامل.

بيد أن التخاطر ليس مسألة نقل أو تصدير فكرة من ذهن إلى آخر - هذا إذا كان لفكرة كهذه أي مدلول على الإطلاق-، إذ الفكرة التي تنقل عن طريق التخاطر، لا تترك وعي المرسِل لتدخل وعي المتلقي. ما الذي يحصل إذاً؟ من الأفضل وصفه بالقول: إن فكر المرسِل ينشئ «صدى» ذهنياً يحصل على المستوى الذهني، وبالتالي فإن نسخته التي تنشأ في وعي المتلقي قد تكون جزءًا متناثراً، ويمكن أن تُشوَّه، أو أن يرمز إليها بطرق عدَّة كما في الأحلام.

إن أذهاننا - وفق إحدى النظريات التي اقتُرِحت لشرح التخاطر-، منفصلة

ومعزولة عن بعضها فقط على مستوى الوعي، لكن على المستوى الأعمق من اللاوعي، فإننا نؤثّر في بعضنا باستمرار، والتخاطر يحصل على هذا المستوى.[١٥]

كيف تتّجه الفكرة المتخاطر بها إلى متلقٍّ بعينه من بين عديدين؟ ظاهرياً الأفكار تتوجّه عبر رباط من العاطفة أو الاهتمام المشترك، كأن يكون صديقان، أحياناً، واعيين عن طريق التخاطر لأزمة خطيرة أو صدمة يعيشها أحدهما، رغم كونهما يعيشان في الطرفين المتقابلين من الأرض.

سوف نتحوّل الآن إلى الفرع الآخر من الباراسيكولوجيا، وهو على صلة أكثر وضوحاً بموضوعنا. يعرض كتاب The Proceedings of the Society for Physical Research عدداً كبيراً من حالات ظهور أشخاص ماتوا حديثاً لأشخاص أحياء (في حالات نادرة لأكثر من شخص واحد في نفس الوقت)، وهي حالات مسجّلة بحذر ومصادَق عليها بشكل مرْضٍ. لقد كان هؤلاء الأموات في عدد من الحالات غير واعين بالموت. إن تقارير هذا الفرع من الباراسيكولوجيا تؤسس بعيداً عن كل شكّ عقلاني للقول إن العقول التي تعمل عن طريق الوسيط، الذي يحضّر أرواح الأموات، تعطي أحياناً معلومات شخصية لا يمكن لهذا الوسيط أن يحصّلها بالوسائل العادية، وأحيانا تعطي معلومات- يتم تأكيدها لاحقاً - ليس بمقدور أي إنسان حي أن يعرفها.[١٦]

من جهة أخرى، فإن الأحداث الفيزيائية مثل «تجسيد» الأشكال الروحية في أشكال مرئية وملموسة، أمر مشكوك فيه إلى حد كبير. لكن حتى لو اختزلنا المجال الكامل للظاهرة الطبيعية، يبقى صحيحاً أن حالات الوسائط الفضلى محيرة ومثيرة للدهشة، وإذا أردنا تقويمها فهي تدل على البقاء والاتصال بعد الموت. فإذا تكلّم المرء من خلال وسيط مع كائن عاقل يعطي انطباعاً متماسكاً عن كونه صديقا حميماً ومعروفاً كان قد مات وأسّس هوية من خلال معلومات ومميزات شخصية كثيرة - كما يحدث عادة - عندئذٍ، لا يمكننا أن نستبعد - بدون اختبار دقيق - نظرية أن ما يحصل هو عودة الوعي من عالم الروح.

لكنّ تقدُّم المعرفة في الفرع الآخر من الباراسيكولوجيا، الذي يركّز على

دراسة الفهم فوق الحسي، ألقى ضوءًا غير متوقّع على هذه التجارة الظاهرية مع الميت، فهو يشير إلى أن التواصل التخاطري غير الواعي بين الوسيط وزبونه هو عامل مهم وقد يكون تفسيرياً بما يكفي. وقد تمّ تصوير هذا بحيوية من خلال تجربة امرأتين قررتا اختبار الأرواح من خلال التركيز، في فترة من الزمن، على شخصية وأجواء أحد أبطال رواية خيالية كلياً غير منشورة كانت قد كتبتها إحداهن. وبالتالي بعد أن ملأتا ذهنيهما بمواصفات هذه الشخصية الخيالية، ذهبتا إلى وسيط ذائع الشهرة، حيث شرع بوصف صديقهم الخيالي بدقة كزائر من وراء القبور جاء ليبلغهم رسالة خاصة منه.

المسألة الأكثر إثارة هي مسألة وسيط «الصوت المباشر» (وهو وسيط يسمِع في جلسته صوت الروح المتصل بها يتكلم من الهواء) الذي حضّر روح «غوردن دايفس» الذي تكلم بصوته المعروف، وعرض معلومات مهمة عن غوردن دايفس، وتذكّر موته. لقد كان هذا الأمر مؤثراً للغاية إلى أن اكتشف أن غوردن دايفس ما زال على قيد الحياة وقد كان سمسار عقارات، وكان يحاول بيع بيت في الوقت الذي عقدت فيه جلسة التحضير![١٧]

بالنسبة «للأشباح»، بمعنى ظهور الأموات، فيمكن القول بإمكان وجود «هلوسات ذات معنى» صادرة عن نوع من التخاطر، ولنقتبس المثال الدرامي التالي: امرأة جالسة على ضفة بحيرة ترى صورة رجل يتّجه نحو البحيرة ويرمي نفسه فيها. وبعد أيام قليلة ينتحر رجل بإلقاء نفسه في نفس البحيرة. التفسير المفترض لهذه الرؤيا أن تفكير الرجل عندما كان يخطّط للانتحار أُسقط بطريقة تخاطرية على ذهن المرأة.[١٨]

في عدد من الحالات المسجّلة هناك ثمة فعل متأخر؛ إذ إن الفكرة المسقطة تخاطرياً تتباطأ في العقل الباطن للمتلقي إلى أن تتمكّن، في لحظة مناسبة من الغفلة عن العالم الخارجي، من الظهور إلى العقل الواعي بشكل درامي - مثلاً، عبر صوت أو رؤية هلوسية- عبر وسائل شبيهة بالآلية التي تعمل في الأحلام.

لو أمكن خلق أشباح الأحياء عن طريق الأفكار والمشاعر السابقة التي تمثّلهم، لأمكن بموازاة ذلك إعادة إنتاج أشباح الأموات من خلال الأفكار والمشاعر التي تم اختبارها والتي كانت تمثّلهم عندما كانوا أحياء. بمعنى آخر، ربما تكون الأشباح «آثاراً نفسية»- أي نوع من الأثر الفكري الذي تركه

الميت، لكنه لا يشتمل على الحضور أو حتى الوجود المستمر لمن يمثله.

حالات عودة للحياة

بالإضافة إلى ما ذكر، هناك نطاق من الظواهر لفت الانتباه حديثاً وهو عبارة عن تقارير تجارب أناس عادوا إلى الحياة بعدما أُعلن موتهم.[١٩] والفترة التي تبيّن أنهم كانوا خلالها أمواتاً تتراوح بين بضع ثواني وعشرين دقيقة أو أكثر من ذلك. تشتمل هذه التقارير، رغم أن ظروفها ليست واحدة، على العناصر التالية: في البداية صوت مرتفع، إحساس كأنهم يسحبون عبر فضاء مظلم شبيه بالنفق؛ دخول إلى «عالم» من النور والجمال؛ يلتقون الأقارب والأصدقاء الذين ماتوا؛ يلاقيهم «كائن من نور» على خُلق عظيم أو روحية مؤثّرة، يفترض المسيحيون أنه المسيح ويفترض آخرون أنه ملاك أو إله؛ كما يرون عرضاً بصرياً حياً للغاية وسريعاً لحياتهم؛ ويقتربون من حدّ يشعرون أنه الحد الفاصل بين هذه الحياة والحياة الآخرة؛ ثم يشعرون أنهم أرسلوا أو سحبوا من جديد إلى جسدهم الأرضي. عموماً، إن من كان لهم هذا النوع من التجارب يكرهون التحدّث عن هذه الظاهرة التي يصعب وصفها، لكن موقفهم تجاه الموت تغيّر بشكل مميّز والآن يفكرون في موتهم المستقبلي بدون خوف أو حتى بتوقعات إيجابية.

قبل هذا النوع من التجارب السمعية والبصرية هناك غالباً تجربة «خارج الجسد»، وهي وعي بالسباحة فوق الجسد ورؤيته ممداً على السرير أو على الأرض أو على طاولة، وهناك أدبيات متزايدة تتعلّق بتجارب «خارج الجسد»، منها ما هو وقت الموت أو خلال الحياة.[٢٠]

أما ما إذا كانت تقارير حالات العودة إلى الحياة تصدر عن أناس ماتوا فعلاً- وبهذا يزوّدون بمعلومات عن الحياة الآتية- هذا ما يستحيل تحديده حالياً. فهل تصف هذه الروايات المرحلة الأولى من حياة أخرى، أو ربما مرحلة انتقالية قبل فكّ الاتصال بين النفس والجسد؛ أم أنها تصف فقط اضطرابات النشاط الحُلمي قبل أن يفقد الدماغ الأوكسجين؟ نأمل أن المزيد من البحث قد يمهّد الطريق للإجابة عن هذه الأسئلة.

توحي هذه التأملات بالحاجة إلى الحذر في تقويم نتائج أبحاث

الباراسيكولوجيا.[٢١] لكن يجب أن يؤدي هذا الحذر إلى مزيد من البحث وليس إلى إقفال الملف. في نفس الوقت، على المرء أن يكون حذراً من عدم التمييز بين غياب العلم وعلم الغيب.

الهوامش

(١) Phaedo.

(٢) نحن نتعرف على العالم من خلال حواسنا الجسمية.

(3) Jacques Maritain, The Range of Reason (London: Geoffrey Bles Ltd. And New York: Charles Scribner's Sons, 1953) p. 60.

(4) Kant, Critique of Pure Reason, Transcendental Dialectic, "Refutation of Mendelssohn's Proof of the Permanence of the Soul."

(5) Gilbert Ryle's, The Concept of Mind (London:Hutchinson & Co.,Ltd./1949).

(6) J. Pedersen, Israel (London: Oxford University Press, 1926),1,170.

(٧) سفر التكوين ٢:٧.

(٨) كورونثوس الأولى ١٥.

(٩) تم تبني الفقرات التالية، بإذن، من مقطع من مقالتي، اللاهوت والتحقق" الذي نشر في مجلة Theology Today (نيسان ١٩٦٠) وأعيد طبعها في كتاب The Existence of God (New York : The Macmillan Company 1964) وفي أماكن أخرى.

(10) Irenaeus, Against Heresies, Book II. Chap. 34 Para.1.

(١١) كورونثوس ١، ١٥:٣٧

(١٢) تشمل لائحة الرؤساء الماضين لجمعية البحوث النفسية، الفلاسفة هنري برغسون، ويليام جيمس، هانس دريش، هنري سدغفيك، شيللر وغيرهم.

(13) J.Rhine,Extrasensory Perception (Boston;Society for Psychical Recearch, 1935).

(14)Benjamin Wolman, ed., Handbook of Parapsychology (New York: Van Nostrand, 1977).

(15) Whteley Carington, Telepathy (London: Methuen,1945), Chap. 6-8.

(16) See C.D.Broad, Lectures on Psychical Research (London: Routlege &Kegan Paul and New

York: Humanities Press,1962), pp. 137-39.

(17) S.G.soal, "A Report of Some Communications Received through Mrs. Blanche Cooper," Sec.4, Proceedings of the Society for Psychical Research, XXXV, 560-89.

(18)F.W.H. Myers, Human Personality and Its Survival of Bodily Death (Lovdon: Longmans, Green, & Co./ 1903 and New York: Arno Press, 1975), I, 270-71. ما زال هذا العمل الكلاسيكي يحضى باهتمام كبير.

(19) See Raymond Moody's Life after Life (Atlanta: Mocking bird Books).

(20) See Sylvan Muldoon and Hereward Carringtin< The Phenomena of Astral Projection (London: Rider,1951); Robert Crookall, The Study and Pravtice of Astral Projection (London: Aquarian Press, 1961); Celia Green, Out – of – the – Body Experience (London: Hamish Hamilton, 1968).

(21) See C.D Broad, Religion, Philosophy and Psychical Research (London: Routledge $ Kegan Paul, 1953).